ديكارت

عوّل ديكارت على التوسل بالشك منهجاً لبناء فلسفة على أسس جديدة سليمة ودعامات راسخة قويمة . فهو يرى أننا تلقينا أغلب الآراء المركوزة فى نفوسنا من حواسنا وعن معلمينا فلم تكن وليدة تأمل خالص وثمرة تفكير سليم .

ينبغى إذن أن نتخلى عن هذه الآراء . وإن حواسنا لتخدعنا أحيانا ، ومايخدعنا مرة لا يؤمن جانبه إذ قد يخدعنا مراراً ، فينبغى أن نثق بشهادة الحواس كلها . ومن الناس من يضل السبيل فى التفكير فيخطىء فى أبسط المبادى الهندسية ، فلنتنح جانباً أيضاً الحقائق الرياضية . ويواصل ديكارت اصطناع الشك فيقول : من يدرينى فقد يكون هنالك شيطان ماكر يبلغ من المهارة وسعة الحيلة حداً يتمكن معه من إضلالى ، فخير لى إذن أن أعلق حكمى على الأشياء جميعاً .

أنا أشك إذن فى كل شىء ، ولم يفلت من شكى أبسط الحقائق الرياضية والمعانى العقلية . فالتشكك هو اللحظة الأولى فى فلسفة ديكارت ولكنها لحظة لا تدوم بل سرعان ما تفضى بنا إلى يقين واضح . فمهما بلغ بى الشك فلن أستطيع أن أشك فى أنى أشك . فأنا الذى أشك أفكر ، وما دمت أفكر فأنا موجود . أنا أفكر إذن فأنا موجود

le pense donc je suis «Cogito Ergo Sum» .

هذه الحقيقة الأولى لا يداخلنى فيها أدنى شك . ولكن ما الذى

يجعلنى على ثقة من حقيقة هذه القضية، أنا أفكر إذن تأنا موجود ؟ إن ما أعرفه فى وضوح وتميز هو أننى لكى أفكر فلابد أننى موجود . ومن ثم يمكننى أن أتخذ كقاعدة أن الأشياء التى أتصورها فى غاية من الوضوح والتميز هى أشياء حقيقية على التمام . فالوضوح والتميز فى الأفكار هما معيار حقيقتها . وإذ يبدأ ديكارت من هذا المبدأ يبرهن على وجود الله ، وبعد أن يصل إلى هذا البرهان يعود فيقلب الترتيب الذى تنتظم به المبادىء فيجعل الله ضامناً لجميع الحقائق، وعلى ذلك فلكون الله موجوداً فإن ما نتصوره فى وضوح وتميز هو أمر حقيق .

وأياً ما كان من اعتراض على شك ديكارت ومهما قيل فى شأنه من أنه قد يخرج فيه عن قصده أراد أم لم يرد ، فإننا نلاحظ أن شك ديكارت شك صورى ، شك مصطنع ، وليس وليد أزمة نفسية أو استسلاماً لليائس من الوصول إلى أركان ثابتة للمعرفة ، وإنما هو منهج يتوسل به صاحبه للوصول إلى اليقين وقد أقدم على اختياره بعد روية وإنعام نظر ، فهو من ثم أبعد ما يكون عن الشك المطلق الذى عرضنا إليه من قبل ، شك الارتيابيين واللاأدريين . إن شك ديكارت للبناء لا للهدم وهو يعد مدخلا لابد منه لفلسفته العقلية .

واليقين الأول الذى تصل إليه هذه الفلسفة وليد الحدس *Intuition* وليس نتيجة قياس أو ثمرة استدلال . والوجود الذى ندركه فى الكوجيتو الديكارتى (أنا أفكر إذن فأنا موجود) ليس وجود الجسم وإنما هو وجود الفكر ، فمعنى أننى أفكر هو أننى أشك وأتعقل وأحس وأتخيل ، هذه الظواهر النفسية وما على غرارها تفيد الفكر لأننا ندركها إدراكاً مباشراً .

ولسنا هنا بسبيل عرض ميتافيزيقا ديكارت وإنما يعنينا فحسب أن نوضح أثر الثورة الديكارتية فى مبحث المعرفة ، إذ أن ديكارت هو أول من وضع أسس المذهب العقلى الحديث .

رأى ديكارت أهمية المنهج فى الفلسفة لينقذها من الفوضى التى انتهت إليها ، وهو لذلك يضع « قواعد لهداية العقل » لأنه يرى أنه « خير للإنسان أن يعدل عن التماس الحقيقة من أن يحاول ذلك من غير منهج » وهو يعنى بالمنهج « قواعد مؤكدة بسيطة إذا راعاها الانسان مراعاة دقيقة كان فى مأمن من أن يحسب صواباً ما هو خطأ واستطاع دون أن يستنفد قواه فى جهود ضائعة ، بل بالعكس مع ازدياد علمه زيادة مطردة ، أن يصل بذهنه إلى اليقين فى جميع ما يستطيع معرفته »(١) .

وطرافة موقف ديكارت فى هذا المجال تتجلى فى اعتبار المنهج واحداً فى الناس جميعاً ، « فالعقل السليم أعدل الأشياء قسمة بين الناس » . وهو لا يقف أمام جزئيات العلوم ، وإنما ينظر إليها جميعاً نظرة شاملة ، ينظر إلى العقل الذى يستنبط منه أحكامها . وهذا هو أساس المذهب العقلى .

والعلم هو العلم اليقينى ، واليقين يقوم على البداهة ، والبداهة تتمثل فى جلاء ووضوح فى العلوم الرياضية ، ومن ثم فديكارت يرى أن العلوم الرياضية تتفوق على غيرها من العلوم لبساطة موضوعاتها ، ولأنها مستنبطة من نشاط عقلى بحت ، يصطنع فيه العقل معانى وتصورات

---

(١) أنظر « قواعد لهداية العقل » القاعدة الرابعة . الترجمة نقلا عن الدكتور عثمان أمين فى كتابه «ديكارت» ـ الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٥٣ (ص ٥٩ — ٦٠) .

واضحة لم يقتبسها من التجربة ، ولذلك يشيد ديكارت بالمنهج الرياضي .

علينا اذن أن نأخذ بالمعانى الواضحة المتميزة، وهى التى تتضح لنا بداهتها أتم اتضاح، فما سبيلنا إلى معرفة الأشياء ؟ يقول ديكارت إن « جميع أفعال الذهن التى نستطيع بها أن نصل إلى معرفة الأشياء دون أن نخشى الزلل عبارة عن فعلين اثنين هما الحدس والاستنباط » .

والحدس *Intuition* عند ديكارت رؤية عقلية مباشرة ، نور فطرى *lumière uaturelle* ، أو غريزة عقلية ، يدرك بها الذهن حقائق يتَّضح يقينها اتضاحا يتبدَّد معه كل شك . من قبيل ذلك وجود الإنسان بالضرورة لأنه يفكر ، وأن المثلث محدود بثلاثة أضلاع . والحدس الديكارتى فعل عقلى خالص وفى ذلك يقول : « أقصد بالحدس ، لا شهادة الحواس — وهى متغيرة — ولا الحكم الخداع حكم الخيال ، وإنما أقصد به الفكرة المتينة التى تقوم فى ذهن خالص منتبه وتصدر عن نور العقل وحده » (١) .

ويدرك الحدس كذلك ما يسميه ديكارت بالطبائع البسيطة *natures simples* وهى التى تدرك إدراكا مباشراً كالوحدة والوجود والامتداد والشكل والزمان والمكان . وهذه الطبائع قد بلغت من الوضوح والتميز مبلغاً يمنع الذهن من تقسيمها إلى أخرى أكثر تميزاً منها .

أما الاستنباط *Déduction* فهو فعل ذهنى نستخلص بواسطته من

---

(١) القاعدة الثالثة . نفس المصدر ص ٦٦

شيء لنا به معرفة يقينية نتائج تلزم عنها . والاستنباط الديكارتى يختلف عن القياس الأرسطى . فالقياس رابطة بين أفكار أما الاستنباط فعلاقة وثيقة بين حقائق . والحدود فى القياس تخضع لقواعد عامة تطبق عليها تطبيقا آليا ولكن المعرفة فى الاستنباط تتم بواسطة الحدس أو النور الفطرى . فالاستنباط إذن « حركة فكرية موصولة ، حركة فكر يرى الأشياء واحداً بعد الآخر رؤيه بديهية » ومن هنا يمكننا أن نقول إن الاستنباط الديكارتى ينتظم سلسلة من الحدوس .

خلاصة ما يعنينا أن المعرفة الواضحة عند ديكارت هى المعرفة العقلية وهى المعرفة التى تنتظم الأفكار الواضحة المتميزة . والأفكار الواضحة *idées claires* عند ديكارت تمثل طبائع بسيطة . وهى وإن كانت تمثل ماهيات فلا ينبغى لنا أن نأخذ الماهية بالمعنى المدرسى ، وإنما يرى ديكارت ألا انفصام بين الماهية والوجود . وإذا كان ثمة تمييز بينهما فهو تمييز تصطنعه فى دراستنا لبيان الفرق بين فكرة الشيء فى الذهن وفكرته خارج الذهن . الماهية عند ديكارت هى الوجود من حيث هو فكر . «وتعقل موجود ما وتعقل طبيعة من الطبائع ليس معناه عنده استخلاص أمر يكون لها فيه مشاركة منطقية مع موجود أو طبيعة أخرى ، بل يفيد بالعكس التفكر والتأمل فى ذلك الموجود أو فى تلك الطبيعه بحدس يفصل بينها وبين سائر الموجودات أو الطبائع الأخرى ، وبهذا الحدس يحصل للعقل فكرة واضحة متميزة » (١) .

---

(١) انظر ص ٨٨ من «ديكارت» للأستاذ الدكتور عثمان أمين . الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٥٣ .

فموضوع العلم عند ديكارت ليس مجرد تصورات مجردة ،وإنما هو حقائق تتمثل فى نفس الإنسان أفكاراً واضحة متميزة. والطبائع البسيطة التى يردد ديكارت التنويه بها ، ليست أجناساً أو أنواعاً على الطريقة المدرسية ، وإنما هى بسيطة كل البساطة لاتحتمل أدنى تحليل ، وإنما يقوم بينها روابط وثيقة وتدركها بالنور الفطرى أو الحدس .

فالعلم الديكارتى يختلف عن العلم المدرسى الذى لا يعدو أن يكون قوالبا لمعان وكليات ليس بينها إلا اتساق صورى خلو من الحقيقة الواقعة. ولم يشأ ديكارت أن ينظر فى التصورات والمعانى نظراً مجرداً يتوصل فيه إلى ماهياتها ، وإنما استهدف التوصل إلى عناصر الأشياء التى هى من الموجودات بمثابة الخطوط والزوايا فى الهندسة .هذه العناصر هى الماهيات التى لا انفصال لها عن الموجودات .

ولا يفوتنا أن ننوه بما ذهب إليه ديكارت من أن الله هو الذى يضمن كل معرفة وكل حقيقة وكل علم . فالضمان الالهى *véracité Divine* هو الدعامة الأولى للمعرفة . فالله هو مبدأ المعرفة والوجود ومنبع اليقين . ووضوح الأفكار وتميزها هما المعيار العملى *Criterium Pratique* لليقين. والمعرفة كما رأينا تتم لنا بحدس لايدع مجالا للشك فى وجود الفكر أو فى وجود الله .

البرانشفيك

ويذهب ما البرانش إلى أن الحقيقة هى الله الحاضر فينا المفكر فينا والمعقول هو المطلق . والمعيار العملى للحقيقة هو وضوح الأفكار .

ويرى سبينوزا أن الفكرة الواضحة المتميزة تبدّد كل شك ، ذلك لأن الشك ينجم عن فكرتين مختلطتين متعارضتين ، والفكرة الواضحة تحمل معها اليقين . بهذه النظرية يقطع سبينوزا الطريق على الشك. وتقوم حجته فى ذلك على أساس أن الفكرة الواضحة متضمنة لليقين، فالافتقار إلى اليقين يأتى من ثم من غيبة كل فكرة واضحة. ولما كانت طبيعة العقل البشرى تقتضى أن تكون له أفكار واضحة ، فالشاك لا ينعم بعقل سليم وهو بذلك أشبه بالمجاوات .

ويميز ليبنيز بين ضروب ثلاث من المعرفة . معرفة حدسية *Connaissance intuitive* ومعرفة برهانية *Connaissance démonstrative* ومعرفة حسية *Connaissance sensitive*. واليقين كذلك على أنواع فهنالك يقين حدسى ، ويقين برهانى ، ويقين حسى .

واليقين الحدسى *Certitude intuitive* يشمل نمطين من الحقائق، حقائق فطرية *vérités primitives* أصلية قائمة فى الواقع وحقائق فطرية قائمة فى العقل .

واليقين البرهانى *Certitude démonstrative* يرجع إلى اليقين الحدسى ، والفعل الذى يتم لنا به استخلاص نتيجة من النتائج فعل بسيط من أفعال الحدس ، وهو يشمل ، دفعة واحدة ، المقدمات والنتيجة . واليقين البرهانى لا يعدو أن يكون يقينا حدسيا منطبقا على علاقة قائمة بين القضايا ، بدلاً من انطباقه على حقيقة واحدة .

أما اليقين الحسى *Certitude sensitive* ، فليبنيز يرى أننا نعرف وجودنا بالحدس ووجود الله بالبرهان ، ووجود الأشياء الأخرى

بالإحساس . ولا نزاع فى أن لدينا فى الإحساس فكرة موضوع خارج عنا . ولكن يلزم أن نعرف ما إذا كان من حقنا أن نعتقد بوجود هذا الموضوع اعتقاداً غريزياً فطرياً . يرى ليبنيز أن المعرفة الحسية تؤدى إلى يقين شأنها فى ذلك شأن المعرفة الحدسية والبرهانية ، ولكن لابد لنا من معيار سليم نميز به بين المعرفة الحسية الصحيحة وبين أوهام اليقظة والمنام . ولا يمكن أن نتخذ حيوية الإدراكات الحسية معياراً سليماً ، إذ قد تكون إدراكاتنا للأوهام والأحلام أشد حيوية من إدراكنا لحقيقة الأشياء الواقعية . إن أصدق معيار نلوذ به هو الارتباط بين الظواهر *La liaison des phénomènes* ، ولما كان منبع هذا الارتباط فى العقل فالمعرفة الحسية الصحيحة تستمد يقينها من يقين المعرفة العقلية .